مراجعات

دراسات حول الإسلام السياسي

مراجعة نقدية *

بعد أحداث 11 أيلول/ سبتمبر، سرعان ما أغرقت العالم كتب حول العلاقة بين الإسلام والغـرب. وفجـأة شـعر الكتّـاب ومسـتطلعو الآراء وكتبـة الأعمـدة والصـحفيون والبـاحثون والأكاديميون، بأن الناس في البلدان الغربية يريدون المعرفة والقراءة عـن الإسـلام وعمـا يفكـر المسلمون فيه.

وقد ذكرتُ الأكاديميين في آخر القائمة لأن قدراً كبيراً مما كتب كان ينحو إلى المعالجة المثيرة لهذا الموضوع، ينظر إلى الإسلام كدين يتاجر بالحروب. ولكن قدراً كبيراً مـن الكتابـات كـان ذا طبيعة جادة. وركز بعض الكتب على العلاقة بين الإسلام والغرب، بينما ناقشت كتـب أخـرى ما قيل من خرافة وحقيقة عن الحركات الإسلامية المعاصرة، وعن الإسلام في العصـر الرقمـي، وإعادة التفكير في الإسلام في العالم المعاصر، وأهمية الثقافة والعقيدة الإسـلامية. ويظهـر تنـوع العناوين أن بعضها كان يعيد حقاً تقويم الآراء الماضية ويحاول الخروج بتحليل ذي معنى.

وعلى الرغم من حقيقة أن إدارة بوش كانت تركز على جلب الديمقراطية للعـالم العربـي، أو على الأقل هذا هو ما كان يقوله بوش بعد الحرب على العراق وأفغانستان، ركز القليل مـن الكتب على هذا المظهر من السياسات الإسلامية. غير أن بعضها تناول فعلاً هذا الجانـب، مثـل كتاب ((الإسلام وتحدي الديمقراطية)) لمؤلفه خالد أبو الفضل، الذي عالج الضغوط التي تواجه المسلمين اليوم.

وهذا الجانـب هـو الـذي عـولج مـن خـلال مـا سُـمّي بالنهضـة الإسـلامية والأصـولية الإسلامية، والسياسات الإسلامية، والإسلام في العلاقات الدولية. وقد أصـبح بعـض الكتّـاب متمكنين من الموضوع بشكل جيد وإلى درجة سهلت لهم تأليف عدة كتب حول الموضوع، ومـن

* إعداد الدكتور د. مروان الأسمر، دكتوراة في العلوم سياسية.

أولهم بيتر ماندفيل (Peter Mandaville). فقد ألف كتابه "سياسات المسلمين المتخطية للحدود القومية"، وأردفه بكتاب ثان بعنوان "الإسلام السياسي العالمي، العلاقات الدولية للعالم الإسلامي"، الذي من المقرر أن ينشر في منتصف عام 2007.

ويناقش هذا الكتاب ما يسميه الإسلام السياسي في أبعاده الدولية، مركزاً على علاقة معقدة وسلسة بين الإسلام السياسي والقومية والعولمة، بينما يقلل من أهمية نظرية التسعينات حول صراع الحضارات.

ولكن يبدو أن الكاتب يؤسس لموضوع عندما يتحدث عن القاعدة كشبكة تتعدى الحدود القومية في العلاقات الدولية، شبكة يرجح أن تؤثر على وجهة العلاقات في المنطقة. غير أن الكتاب موجه بشكل واضح إلى دارسي نظرية العلاقات الدولية الذين ينشدون فهم التفاعلات بين مختلف اللاعبين العالميين في النظام الدولي.

ويلي هذا الكتاب، إصدار آخر يحاول فهم نظريات التغير في الإسلام كما تستخلصها التفسيرات المختلفة للجهاد. ولذلك نرى كتاب "العدو البعيد: لماذا امتد الجهاد عالمياً"، لمؤلفه فواز جرجس، (مطبعة جامعة أكسفورد، 2005)، يدرس هذا الموضوع بالتحديد، ويرى أن المفهوم تروج له القاعدة وتمارسه، باعتباره وجهة نظر أقلية من المسلمين.

يقول جرجس: إن "جهاديي" التيار السائد يركزون على البعد الداخلي لتغيير العالم الإسلامي من الداخل، ويتبنون نظرة قومية في تحقيق الإصلاح السياسي. ويتناقض هذا التوجه مع الآراء التي تعتنقها منظمات مثل القاعدة التي تتبنى فلسفة مختلفة في ضرب قلب النظام الدولي.

ويقول الناقدون: إن هذا الكتاب يستقصي الأساليب التي يستخدمها "الجهاديون" في مسعى لنيل السلطة والزهو بجمهورهم ورفع شأنهم. لكن المؤلف يثير تساؤلات مختلفة، مثل: هل يستطيع "الجهاديون" البقاء إذا تمسكوا بالأساليب العنيفة كالتي تستخدمها القاعدة.

لقد جرى استقصاء قضية السياسات المتخطية للحدود القومية في الإسلام من نواح وزوايا مختلفة. وفي مرات عديدة، رأى باحثون أن المظهر المحلي للنزعة الإسلامية يتجاوز البعد الخارجي. ويعتبر مفهوم الدولة والأيديولوجية والقومية والمجتمع المدني وحتى التقوى

والإصلاح الإسلامي بمثابة مدخلات في التحليل حول الإسلام والسلوك السياسي للمسلمين والقادة الإسلاميين والسياسيين، بالإضافة إلى الناشطين. ويقال إن هذه العوامل تستخدمها السياسات الإسلامية وهي بالتالي تتأثر بها.

وكانت هناك مزاعم بأن هذه الأفكار والمعتقدات العملية تتبدى في طرق مختلفة عند معالجة مفاهيم الإسلام على المستويات الدولية وتخطي الحدود القومية لتنتج أراء وتحليلات ممتعة عقلياً وبينما يمكن أن تظهر قضايا مثل "الإرهاب" والعنف والتهديد في أدبيات معينة، أصبح هذا الاتجاه أقل بروزاً.

وفي كتاب فرانسيس بورغات، "وجهاً لوجه مع الإسلام السياسي" (2003)، يبدو البعد أكثر دقة. تقول بورغان، الأكاديمية الفرنسية، إن من التبسيط الشديد القول: إن الإسلام ينكر الديمقراطية، وأنه غير متسامح مع الآخر، لأن ذلك بعيد عن الحقيقة. وتقول بورغان: إن الإسلام يسعى للتعبير عن ذاتيته في نظام دولي تهيمن عليه الدول الغربية والأيديولوجية الغربية.

من هذا المنظور يسعى الإسلام السياسي لإعادة تأكيد أصالته في النظام العالمي الذي تهيمن عليه قوى خارجية، من ناحية، ويخضع للسيطرة الداخلية من نظام الدولة، من ناحية أخرى، وهي السيطرة المدعومة من الغرب، كما ترى المؤلفة.

ولكن تحليلها يمضي لأبعد من ذلك عندما تقول: إن الإسلاميين ربما لا يعترفون بعالمية الحقوق الديمقراطية بسبب حقيقة أنهم ربما لم يستفيدوا من هذه العالمية هم أنفسهم، ويعود ذلك إلى طبيعة الحكم السياسي الذي يكبت المعارضة والنظام متعدد الأحزاب والفكر الحر، الذي دعمه الغرب الذي يزعم المطالبة بنشر الديمقراطية العالمية وهو يحمي هذه الأنظمة الدكتاتورية.

ويرى هذا الكتاب، الذي وصف بأنه من أفضل التحليلات حول الإسلام بأن الدين، من ناحية، يسعى لاستعادة ثقافته التي هيمن عليها الاستعمار، وأنه من ناحية أخرى، وسيلة للتحرير، لا للأصولية. وهي تدرس بالتفصيل النظرة الإسلامية للحداثة وتفاعله معها، ونظرته للمرأة وقضايا العنف.

وفي تعارض مع هذا التحليل، يقدّم كل من راي تاكيه ونيكولاس غفوسديف تفسيراً مختلفاً للإسلام السياسي. ففي كتابهما "انحسار ظل النبي: صعود وسقوط الإسلام السياسي

المتطرف" (2004)، يرسم الكتاب صورة قاتمة لمستقبل الحركات الإسلامية في العالمين العربي والإسلامي، قائلاً إنها فشلت بشكل تعيس لأنها عجزت عن إنتاج نموذج عملي للحكم في دولة قومية.

ويذكر المؤلفان أن ما يسمونه "الإسلام المتشدد" هو أكثر مهارة في التحطيم بدلاً من الخلق والإبداع، وأنه ينجح في إثارة التمرد وتوجيه الاضطرابات بدلاً من بناء مجتمعات مستقرة متوازنة.

لكن الكثيرين يرون أن هذا المنحى يعد تفسيراً شديد التبسيط للإسلام. ومن الأمثلة الواضحة لذلك الثورة الإيرانية عام 1979 وإقامة حكومة إسلامية مبنية على التمثيل القوي، والتي حكمت إيران من خلال الانتخابات والبرلمان.

والمثال الثاني لذلك هو حماس، عندما شاركت لأول مرة في انتخابات 2006 للبرلمان الفلسطيني ونالت غالبية المقاعد فيه. ومن الواضح أن تجربة حماس تدحض آراء تاكيه وغفوسديف بسبب حجم شعبية الإسلام السياسي عند الجماهير التي سئمت سياسات التيار السائد الذين لم يفوا بوعودهم.

في كل من فلسطين وإيران، بنى الإسلاميون على مدى الثمانينات والتسعينات مؤسسات شعبية، ومدوا أيديهم للجماهير والفقراء والمعوزين وللطبقات الوسطى لكسب الدعم لآرائهم حول الإسلام السياسي ولكي يحظوا باحترام المجتمع.

ففي إيران، بنى الإسلاميون نظاماً إسلامياً تشاركياً قوياً، وفي فلسطين، أصبحت حركة حماس نشيطة ومتفاعلة، ولبت حاجات الفلسطينيين في الضفة الغربية وبشكل أوسع في غزة. وبذلك، فإن تاكيه وغفو سديف، وبناء على النموذجين في إيران وفلسطين، يعتبران قد فشلا في دعم وجهة نظرهما، وقدما تحليلاً يكشف عن بصيرة حسيرة عندهما.

ولما كانت الأصولية تبدو على أنها نظرية موضوع نقد فإن هناك دائماً آراء مختلفة حولها. ويحاول البرفسور بسام الطيبي، أستاذ العلاقات الدولية في جامعة غوتنجن في ألمانيا، أن يحلل ويشرح الفرق بين روحانية الإسلام التي لا تشكل خطراً على النظام الدولي، والأصولية الإسلامية التي يعتبرها إجابة ورداً سياسياً على الهيمنة الغربية. وفي كتابه "تحدي الأصولية:

الإسلام السياسي وفوضى العالم الجديد" (مطبعة جامعة كاليفورنيا، 2002)، يقول الطيبي: إن هناك ثورة أصولية، لا على السلطة السياسية الغربية وحسب، بل كذلك على ثقافة الغرب وعلى قيمه، فهي تتحدى المفهوم الغربي للنظام العالمي للدولة القومية، لأن الإسلام يرفض هذه الحدود ويعتبر نفسه القوة المنظمة المشروعة للعالم.

غير أن الطيبي يرى بأن الإسلام ينبغي أن يُفهم على نحو أفضل باعتباره قوة ثقافية ينبغي تشجيعها والإفادة منها، وليس خطراً يخشاه الآخرون. ويدعو هذا الكتاب القادة السياسيين والدينيين لتشجيع ورعاية التسامح الديني عند الديانات العالمية.

ورغم العديد الكبير من الكتب التي وضعت، يرى النقاد بأن معظم هذه الكتب قد شوهته الرؤى الغربية السطحية للمفاهيم والقيم والمعتقدات الموجودة في الغرب والتي ليس من الضرورة أن يكون لها التأثير نفسه في العالم العربي أو العالم الإسلامي.

هناك من يقول: إن الآراء حول الديمقراطية، والنظم السياسية، وحرية التعبير، وقضية القيادة، يجب صياغتها ضمن المفاهيم المحلية السائدة وعمليات الفكر المحلية. ولكن بغض النظر عن ذلك، فإن إحدى الأمور الملفتة للنظر التي تبدو غائبة عن أي كتاب حول السياسات الإسلامية والعلاقات الدولية، هي الوجوه القرينية للقرآن ومدركاته الحسية العقدية.

وهناك تقليل من أهمية الآراء حول نظم المجتمع، وقضية النظام، والعلاقات البينية، والعلاقات مع الآخر، بينما هناك تسليط للضوء من جانب عدد من الكتّاب، مثل برنارد لويس، على ما يسميه الآراء العدائية في الإسلام، مثل الحرب، وقضايا إخضاع غير المسلمين.

ولكن هذه الآراء تعتبر خارج السياق. إن السمات السلمية للإسلام، وموقفه من العدوان، ما لم يجري الاعتداء على المسلمين، والحاجة إلى معاملة أسرى الحرب معاملة طيبة، هي سمات لا يؤكد المؤلفون عليها كثيراً، وبالتالي لا يعرف القرّاء عنها ولا يهتم الغربيون المتخصصون بقضايا الشرق الأوسط بالاعتراف بها على وجه العموم.

ولكن كتباً معينة تسعى من وقت لآخر لإعادة قراءة الصورة فهناك مثلاً، كتاب غراهام فوللر، "مستقبل الإسلام السياسي" (ماكميلان، 2004). ويعتبر الأسلوب السلس ميزة تجعل من هذا الكتاب مرجعاً جيداً لموضوع على قدر كبير من الأهمية للقارئ الغربي.

وهو يقول ببساطة شديدة إن الإسلام هنا ليبقى، وهو يصلح كبديل واقعي للأنظمة القمعية في العالم الإسلامي، الأمر الذي يحتاج الغرب إلى الاعتياد عليه.

ويبتعد موللر عن الآراء الغربية التقليدية عن الإسلام التي تعود إلى القرون الوسطى، ويرسم صورة نضرة عصرية للإسلام وهو يدخل القرن الحادي والعشرين. ويقول المؤلف، وهو من رجال وكالة المخابرات المركزية الأمريكية سابقاً: إن الإسلام ديانة قابلة للتكيّف، قادرة على العمل داخل المؤسسات الحديثة، سواء كانت ديمقراطية أو شبه ديمقراطية. وللإسلام قدرة فائقة على المشاركة في النظم الحديثة في العالم وقبول مبادئ مثل الديمقراطية التعددية، ويمتاز بشموليته في العالم الحديث.

وهناك العديد العديد من الأفكار، والعديد من المعتقدات. ويرى الكثيرون بأن الإسلام ليس نظام معتقدات متماثلة، فهناك الكثير من الاتجاهات والحركات داخل الديانة، مما يشير إلى بنيته الثرية والطريقة التي يشارك فيها في البنى المعقدة في أنحاء العالم. وهو، على وجه الإجمال، ديانة داخل النظام العالمي، وليس بديانة تسعر للعمل من خارجه، أو حتى لتدميره.

هذه بعض الأدبيات التي تبين رؤية الدراسات والحوارات المختلفة في النظرة الغربية خاصة، ولبعض المفكرين العرب المتغربين، حول الإسلام السياسي ومفاهيمه وحركته ومستقبله، مما يثري قراءنا ويفتح لهم المجال للكتابة والرد على هذه الأفكار في الأعداد القادمة.